الشهيد الثاني ، زين الدين بن علي الجباعي
بطل الوحدة الإسلاميّـة

الشيخ د. جعفر المهاجر

(١)

يحب أن أُبيّـن أولُ ماذا أُريد بالكلمتين الواردتين في الشطر الثاني من العنوان .

البطل في لغة أهل التاريخ هو ذلك الإنسان الطليعي ، ذو القدرة على إدراك مواصفات وخصوصيّـات الحظة التي يعيش فيها ومقتضياتها ، وذو القدرة ثانياً على التماهي معها والعمل بما تطلبه وتقتضيه . وذو القدرة ثالثاً على إغراء النـاس بالسير خلفه على الطريق الذي اختاره ، إنه كالدليل ، يُحسن بطريقة ما معرفة الطريق الصحيح ، أو الذي يجب أن يكون صحيصاً ، من بين الطُّـرق الكثيرة المتشعّبـة ، ويُحسـن أيضاً قيادة مَـن معه أو خلفه في ذلك الطريق . بحيث لا يشرد عنه إلا مَـن عميت منه البصيرة . وهذان شرطان متكاملان . فلو انه تمتّـع بالمقدرة على معرفة الطريق ، من دون أن يملك إلى جنب ذلك موهبة القيادة وسحر القائد ، لأمكن القول فيه ـ مثلاً ـ إنه عبقري ، أو صاحب رؤية . ولكنه بالتأكيد لن يستحق اسم البطل .

والوحدة الإسلاميّـة من منظور صاحب لواء هذا الجمع ، لايعني إطلاقاً إلغاء أسباب الخلاف بين المذاهب . بل إعادتها إلى معناها وميدانها ، ميدان البحث والنظر والتأمّـل . وتحريرها من العامل السلطوي الذي زُجّ فيها ، واغتصب منها معناها الأصيل . وحرمهـا من حريّـة البحث والتأمّـل . وأدخلها كُـرهاً في خدمة السلاطين . أداة إضافيّـة تُحكِـم من قبضتهم على العباد . وشتّـان ما بين المستويين ، مستوى البحث والنظر ، ومستوى خدمة السلطة ، وإن تماثلا في المظهر .

ثم إن عليَّ أن أُقدّم بما يناسب المقام ، عن مواصفات الفترة التي عاش فيها بطلنا . لكي يساعدني على بيان العلاقة بين لون بطولته الخاص وبين مااضطرب فيه وقاد خُطـاه .

فعندما كان الشهيد في مُقتبل العمر وميعة الصبا ، في الحادية عشرة من عمره على نحو التحديد ، أنهى العثمانيون حُكم المماليك الطويل . وصارت المنطقة الشاميّـة ، بما فيه " جبل عامل " طبعاً ، إليهم . ما يهمّنا من هذا الحَـدَث التاريخي الضخم ، أن القضاء على حُكم المماليك قضى على لون من ألوان الحُـريّـة نعم به " جبل عامل " طويلاً . ولم يُقدّره أحد حق قدره إلا بعد فقده . ذلك أن سلاطين المماليك كانوا ، على سيئاتهم الكثيرة ، قد أحسنوا في أمـر واحد فقط . هو أنهم لم يكترثوا بالنزاعات الفقهيّـة والكلاميّـة . وتركـوا أمور الثقافة لأهلها . لايتدخّلون فيها إلا إذا هدّدت سلطانهم . كانوا جنوداً جاهلين ، أكثرهم أُميّـون . بل كان منهم مَـن لا يُحسن العربيّـة إلا لماماً . لايبتغون أكثر من حياطة مُلكهم ، وحماية الإمتيازات الهائلة للطبقة العسكريّـة التي يُمثّـلونها . فتركوا أمر الثقافة وبلبالها لأهلها . مع الحرص الشديد على أن يبقى هؤلاء على مسافة كافية من مواطن التأثير .

أمّـا العثمانيون فقد كانوا على العكس من ذلك تماماً . ذلك أنهم حملوا دائمـاً لوناً مذهبياً حاداً جداً . ولا يكادون يعرفون الإسلام مُـذ عرفوه إلا على المذهب الحنفي . وانعكس موقفهم هذا على علاقتهم بالمذاهب الإسلاميّـة الأُخرى كلها . ولكنهم حملوا عـداءً غير مكتوم للتشيُّـع الإمامي بالخصوص ، نتيجـةً لصراعهم السياسي والعسكري مع خصومهم الصفويين . بحيث تعاملوا معه ومع أهله بوصفه المذهب العدو أو مذهب العدوّ .

ذلك هو الوضع الذي اضطرب فيه الشهيد أيمـا اضطراب . واضطربت معه " جُبـاع " ، آخـر نبضـة في النهضـة العامليّـة . وقد كان هو شيخها الأكبـر ، وأعلى فقهاء الشيعة الإماميّـة شـأناً في زمانـه . وكانت جهوده موجّهـةً إلى الحفاظ على ما يمكن الحفاظ عليه من الحياة العلميّـة في بلدتـه ، بعد أن انحصرت فيها بقايا النهضة العلميّـة العامليّـة . لكننـا تعتقد أن همّـه الأكبر كان مُعلّقـاً بعلاج تلك الحالـة من التعصّـب المذهبي ، التي لا سابقة لهـا في حـدّتهـا في المنطقة الشاميّـة خصوصـاً . كمـا نعتقد أن هـذا الهـم هـو مفتـاح سيرتـه وبطـولتـه الفريـدة .

(٢)

لم يترك لنا الشهيد ، فيما وصلنا من كتبه ورسائله الكثيرة ، نصاً يبيّـن لنا وجهة نظره في قضيّـة المذاهب والتمذهب في الإسلام . لكن تلميذه محمد بن علي الجزيني ينقل لنا في السيرة الضائعة التي وضعها لشيخه ، وسمّـاها (بُغية المُريد في أحوال الشهيد) ، حواراً ثميناً جرى بين الشهيد وبين أبي الحسن علي بن محمد البكري (ت : ٩٥٢ هـ / ١٥٥٤ م) يُبيّـن لنا ما قصُـرت عنه كتابات الشهيد المباشرة في هذا الشأن . وجدير بالذكر أن البكري كان أعلى شيوخ الشافعيّـة في " مصر " مكانة . سمع عليه الشهيد جُملـة من الكتب . واصطحبا معاً في طريق الحج سنة ٩٤٣ هـ / ١٥٦٣ م . وقد سجّـل لنا ابن العودي أن شيخه كان " يُطري علينا أحوال هذا الشيخ ويُثني علـيـه " . والحوار جرى أثناء الطريق إلى الحجاز . وهومُثبَـت فيما حفظه لنا

حفيد الشهيد ، محمد بن علي بن الحسن الشهيدي في كتابه (الدرّ المنثور في المأثور وغير المأثور : ٢ / ١٤٩ ـ ١٩٩) .

قال الشهيد مخاطباً البكري :

" ما تقولون في أمر هؤلاء العوام ، الذين لايعرفون شيئاً من الدلالات المُنجية من الهلكات ، ما حكمهم عند الله سبحانه ، وهل يرضى منهم هذا التقصير ؟ بل ننقل الكلام إلى العلماء الأعلام والفضلاء الكرام ، الذين جمُد كلّ فريق منهم على مذهب من المذاهب الأربعة ، ولم يدرِ ما قيل فيما عدا المذهب الذي اختاره . مع قدرته على الاطلاع والتفحّص وإدراك المطالب . وقنع بالتقليد للسلف . وجزم بأنهم كفوه مؤنة ذلك . ومن المعلوم أن الحق في جهة واحدة . فإن قالت إحدى الفرق ، الحق في جانبنا ، اعتماداً على فلان وفلان . فكذلك الأُخرى تقول ، اعتماداً على مُحققيهم وأعيان مشايخهم لأن ما ما فرقة إلا ولها فضلاء ترجع إليهم وتقول عنهم . فالشافعية مثلاً يقولون ، نحن الإمام الشافعي وفلان وفلان كفونا ذلك . وكذلك الحنفيّة يستندون إلى الإمام أبي حنيفة وغيره من مُحققي المذهب . وكذلك المالكيّة والحنابلة يستندون إلى فضلائهم ومُحققيهم . وكذلك الشيعة يقولون ، نحن السيد المرتضى والشيخ الطوسي والخواجا نصير الدين الطوسي والشيخ جمال الدين وغيرهم ، قد بذلوا الجُهد وكفونا مؤنة الفحص . ونحن على بصيرة وثقة من أمرنا . فكيف يكتفي مثل هؤلاء الفضلاء بالاقتصار على أحد هذه المذاهب ، ولم يطّلع على حقيقة المذهب الآخَر . بل ولا وقف على مُصنّفات أهلها ، ولا عرف أسماءها . فكون الحق مع الجميع لا يُمكن . ومع البعض ترجيح من غير مُرجّح " .

أجـاب البكـــري :

" أمّـا ما كان من أمر العوام ، فنرجو من عفو الله أن لايؤاخذهم بتقصيرهم . وأمّـا العلماء فيكفيهم كون كل واحد منهم مُحقّاً في الظاهر " .

قال الشهيـــد :

" كيف يكفيهم مع ما ذكرنا من تقصيرهم في النظر وتحقيق الحال ؟ " .

أجـــاب :

" ياشيخ جوابك سهل . مثال ذلك مَن وُلِد مختوناً خِلقةً . فإنه يكفيه عن الختان الواجب " .

أجابـه الشهيد :

" هذا المختون خِلقةً لا يسقط عنه الوجوب حتى يعلم أن هذا هو الختان الشرعي . بأن يسأل ويتفحّص من أهل الخبرة والممارسين لذلك .

وأن هذا القدر الموجود خِلقـةً هل هو كافٍ في الواجب شرعاً أم لا . أمّـا أنه من نفسه يقتصر على ما وجده ، فهذا شرعاً لا يكفيه " .

وختم البكري الحوار بقوله :

" ياشيخ ليست هذه أول قارورة كُسرت في الإسلام "
(الدر المنثور : ٢ / ١٦٤ ـ ٦٥)

فأنت ترى من هذا الكلام أن الشهيد يحمل همّـاً مُقلقاً حول تقاطع مذاهب المسلمين فيما بينها . وحول تحوّل مذاهبهم إلى كيانات مُغلقة ، ليست تتعارف ولا تتحاور . تقاطع يرتكبه فقهاؤهم ، ويبين أثره في الناس من أتباع كل مذهب . وأن كلامه للبكري لم يكن ارتجالاً وابن ساعته ، بل نتيجة تأمّـل ومعاناة سابقين . ولعلّـه لم يكُـن ليُفصح عن مكنون صدره بذلك الوضوح لو لم يكن الإثنان في طريق الحج إلى بيت الله الحرام . حيث ينخلع الناس عادةً من أطُرهم المُسيطرة . وحيث تنهض بينهم علاقة جـدّ شخصيّة وأكثر براءة . ليس فيها إلا القليل من الرسوم والمراسم التي اصطنعوها لأنفسهم ، أو اصطُنعت لهم في مرابعهم العادية .

إن النهاية البائسة التي وصل إليها الحوار تُظهر لنا التباين الشديد بين الرجلين في وجهة النظر من الموضوع . وما من شك عندنا أن أفكار الشهيد قد فاجأت الشيخ البكري ، وأنه لم يكن مستعداً لها بحال . وما من شك عندنا أيضاً أن ما تلقّـاه الشهيد من مخاطبه كان أفضل ردّ يمكن أن يتلقّـاه ، على الأقل لأنه مـرّ بسلام .

(٣)

كانت الأيام تكتم امتحاناً عسيراً للشهيد ، كأنمـا تُريـد أن تكشف به صـدق أفكاره في هذا النطاق ، كما تُريـد أن تكشف به قُدرتها وقُدرة صاحبها على التطبيق الفعلي . وكان ذلك في فترة " بعلبك " من سيرته الحافلة ، التي طالت زهاء السنتين . منـذ أوائل السنة ٩٥٣ هـ / ١٥٤٦ م حتى أواسط السنة ٩٥٥ هـ / ١٥٤٨ م . وما ندري هل هو الذي اختار نزول " بعلبك " لذلك الغرض بالتحديد ، أم كان أمراً ساق إليه التوفيق ؟

القطع في الجانب الأخير من السؤال محال ، نظراً لعول النصوص . لكن من المؤكّـد أنه هو الذي اختار " بعلبك " على سواها . يقول في السيرة الذاتيّـة التي كتبها بقلمه : " وأرسل إليّ [يعني قاضي العسكر العثماني] الدفتر المشتمل على الوظائف والمدارس . وبذل لي ما أختاره . وأكّـد في كون ذلك في الشام أو حلب . فاقتضى الحال أن اخترتُ المدرسة النّوريّـة ببعلبك لمصالح وجدتها ، ولظهور أمر الله بها على وجه الخصوص " (الدرّ المنثور : ٢ / ١٧٧) . فهذا كلام يشهد إجمالاً بأنه اختار " بعلبك " عن تبصّر ودراية وحُسبان .

المهمّ أ نـــــــه ماإن آب من " إسلامبول " حتى اتجـــه إلى " بعلبك " بعد استراحة قصيرة في " جُبــاع " .

كانت " بعلبك " التي نزلها ابن " جباع " مدينة صغيرة أو بلدة كبيرة ، في مقاييس ذلك الزمان . لايبلغ عديد سكانها العشرة آلاف على أبعد تقدير . لكنها كانت حاضرة منطقة واسعة خصيبة عامرة ، تمتدّ من الطريق التاريخيّـة المعروفة حتى اليوم باسم " طريق الشام " ، حتى " وادي العاصي " شمالاً .

ومن جهـة أُخرى ، فقد كانت حتى ماضيها غير البعيد ، أحد المراكز الحنبليّـة النادرة في المنطقة الشاميّـة . لكن أرباضها الواسعة وجوارها كانت معمورة بجماعات شيعيّـة كثيفة متناميـة . انصبّـت عليها قادمةً من أماكن قصيّـة ودانيـة . وقبل قرون من دخول الشهيد المدينة ، كان قد بدأ فيها تغيير سكّـاني ، استمر حثيثاً فيما بعد . بحيث غدت المدينة ذات أكثريّـة شيعيّـة . لكنها كانت في ذلك الأوان ، بحسب تركيبتها المذهبيّـة ، حنبليّـة شيعيّـة . مع نسبة غير معروفة من الشافعيّـة والأحناف ، وأقليّـة مالكيّـة .

من هنا نعرف أن المدينة كانت يوم نزلها الشهيد حقلاً مناسباً جداً ، ونكاد نقول نموذجيّـاً ، لأفكاره . فقد كانت تتمثّـل فيها ، وإن بنسب متفاوتة ، كافة المذاهب . تعايشت وتتعايش بسلام ووئام . بحيث لايذكر أحد أنه حدث بين أهلها ما يُعكّـر صفو العلاقات بينهم تعكيراً عامـاً .

ومن جهة أُخـرى ، فإن الجماعة الشيعيّـة الكبيرة فيها وفي جـوارها هيأت له موطئ قدم في المدينـة ذات التركيبة السكانيّـة الـمُعقّدة الـمُتنوّعـة . ودون ذلك لم يكن للشهيد ما تأ تّـى لـه . فـأنّـى لفقيه شيعي أن بدخل مدينة ، ليسلك في أهلها ، لو لم يكن له فيها قاعدة من أبناء مذهبـه ؟

(٤)

والآن ، مــاذا عمـل الشهيد في " بعلبك " مـمّـا يتصـل بأفكاره عن العلاقات بين المذاهب ؟

يقول في مذكّـراته :

" ..... ثم أقمنا ببعلبك . ودرّسنـا فيها مـدّة في المذاهب الخمسـة وكثير من الفنون . وصاحبَنـا أهلها ، على اختلاف آرائهم ، أحسـن صُحبـة . وعاشرناهم أحسـن عشـرة . وكانمت أياماً ميمونـة ، وأوقاتاً بهجـة . ما رأى أصحابنـا في الأعصـار مثلهـا "

يُعلّـق تلميذه وكاتب سيرته أبن العودي على كلمات شيخه بقولـه :

" كنتُ في خدمتـه في تلك الأيام . ولا أنسى وهو في أعلى مقام ، ومرجع الأنام ، وملاذ الخاص والعام . يُفتـي كل فرقة بما يوافق مذهبها ، ويُدرّس في المذاهب كلها . وكان له في المسجد الأعظم بها درس ،

مُضافاً إلى ما ذُكر . وصار أهل البلد كلهم في انقياده ، ومن وراء مُراده . بقلوب مُخلصة في الوداد ، وحُسن الإقبال والاعتقاد . وقام سوق العلم بها على طبق المراد . ورجعت إليه الفضلاء من أقاصي البلاد . ورقى ناموس السادة والأصحاب في الازدياد . وكانت عليهم تلك الأيام من الأعياد " .
(الدرّ المنثور : ٢ / ١٨٢)

نودّ أن نُشير أولُ إلى البهجة التي تندّ عنها كلمات الشهيد ، وأن ننوّه بالتواضع الجمّ الذي صاغ به كلماته القليلة ، عن نهجه الثوري في " بعلبك " . هوذا رجل وصل إلى إعمال أفكاره الجذريّة في ضرورة التعارف بين أهل المذاهب ، عبر طريق شاقّ وطويل ، قاده إلى مُختلف الأقطار . ناسجاً شبكة من العلاقات مع المعارف من فقهاء المذاهب . ومُعدّاً نفسه إعداداً دقيقاً . بحيث غدا فقيهاً إسلاميّاً بالمعنى الشامل للكلمة . أي أنه اخترق في إعداده لنفسه الحاجز المذهبي الصلب ، مقدّمة لاختراقه على مستوى الجمهور . وها هو الآن يُفصح عن فرحه وغبطته . غبطة إنسان وصل إلى مطلب عمره . وأعتقد أنكم جميعاً تشاركونني التأثّر البالغ للكلمات التي ختم بها وصفه لأيامه في " بعلبك " ، لِما فيها من براءة وعظمة وخلوص : " كانت أياماً ميمونة ، وأوقاتاً بهجة . ما رأى أصحابنا في الأعصار مثلها " . ولنلاحظ هنا أن الشهيد نسب قسطاً كبيراً من الفضل في نجاحه المذهل إلى الناس " وصاحبَنا أهلها ، على اختلاف آرائهم ، أحسن صُحبة " . هو ذا تواضع العظماء الحقيقيين . ولولا ما علّق به تلميذه لما عرفنا الاستجابة الكبيرة للناس على نهجه ، والمكانة التي اكتسبها بينهم ، بحيث صاروا جميعاً في انقياده ومن وراء مراده " ورجعت إليه الفضلاء من أقاصي البلاد " . لكن هذه الإستجابة البريئة والعظيمة هي التي أغضبت الدولة العثمانيّة ، بحيث رأت فيها خطراً وشيكاً ، وساقتها إلى تلك الجريمة النكراء والغبيّة ، فقتلت هذا الإنسان العظيم .